تقاليد الزواج واصولها النفسية

(١)

ماهية التقاليد واثرها — التربية الجنسية — معنى الزواج

﴿ الزواج عند الحيوان والطيور — العائلة والزواج ﴾

لكل شعب أو جماعة ، متأخرة كانت أو مثقفة ، مذاهب اجتماعية مختلفة يجرون عليها في معاملاتهم وفي علاقاتهم الاجتماعية ، هذه المذاهب تحدد سلوكهم وتثبت في تكوينهم العقلي حتى تصبح طبيعة ثانية يكون تحويلها أو استئصالها ضرباً من العبث ، وهذا ما يعرف بالتقاليد

ولا تشمل التقاليد المراسيم والطقوس الدينية والاجتماعية المختلفة فقط ، بل هي كذلك تشمل نزعة الشعب العامة ومنتجى تفكير افراده ، فالمرأة الرجعية في لباسها وافكارها في بلد كاميركا مثلاً ، تُعَدُّ بلا شك معتدية على نزعة تقليدية شعبية

وقد ترمي التقاليد عادة الى غاية يسعى المحتفظون بها الى تحقيقها ، ولكن هذه الفائدة المرجوة منها تضيع بلا شك مع مرّ الزمن فينقل التقليد من جيل الى جيل ، ومن جماعة الى جماعة فاقداً في أثناء انتقاله وتطوره أسباب الاخذ به ، والغرض الذي تسعى الجماعة الى تحقيقه ، فتمارسهُ الاجيال الناشئة جاهلة بهذه الأسباب التي تكون قد تحولت أو اندثرت منذ زمن بعيد . بينما ترى في الوقت نفسه ان الفرد يرهب الاعتداء على هذه المعتقدات التقليدية خوفاً من تهجُّم المجتمع عليه لاسيما تلك الطبقات غير المثقفة من الشعب التي تؤمن بها دون أن تبني أيمانها على نظرية أو فكرة

ولعل لغريزة التقليد أثر كبير في ذلك ، اذ ان جانباً كبيراً مما يتعلمهُ الطفل ويعمل على صوغ حياته العقلية يرجع الى استعداد الطفل للتقليد اللاقصدي . فاللغة والدين والقوانين العرفية يأخذها الطفل عن أبويه أو يتعلمها من البيئة التي يعيش فيها ، ويدافع عنها فيما بعد بحرارة وحمية لا لأنها معتقدات مبنية على التدقيق والاستقصاء ولكن لانها انتقلت اليه في سنيه الاولى فرسبت في قرارة نفسه[1]

(١) راجع W. Mudougall, Introduction to Social Psychology

ان أزياء الملابس بلا شك تقاليد موروثة ، وهذه الازياء قد تكون وضعت اصلاً لتتناسب مع بيئة معينة أو مهنة خاصة ، لذلك كان يجب ان تتبدل او تندثر جملةً اذا فقدنا هذه الاغراض . ولكن ماذا يحدث لو اعتدنا عليها ؟ لتصور سيدة ارتأت — ورها الحق ان ترتأي — ان تستعيض عن ردائها الفضفاض بزي من ازياء الرجال ، او قل بزي من ازياء القرن الماضي الفسوية !

ليس أيسر من ان ينتج هذا الحادث لغطاً شديداً واحاديث وابحاث ومناظرات ومحاضرات بين الشعب . واذا سلمنا بعدم احتمال نشوب ثورة اجتماعية ، فليس اقل من ان يتدخل القضاء او الشرطة في الامر (كما حدث في انجلترا منذ عامين) [1] لا لجناية ارتكبت ، بل لاعتداء احد افراد الجماعة على التقاليد المتعارفة بينها

فلا عجب اذا قرنا بانجاباً كبيراً من سلوكنا الاجتماعي مقيد بهذه القيود الثقيلة العتيقة التي مع اعتراف الكثيرين منا بسخف بعضها او بتفاهته نجد انفسنا مكرهين على اتباع ما سنته وملاحظة ما اختطته

ان الديانات على اختلافها معذورة بهذه التقاليد ، ورجال الدين في حمى هذه التقاليد ابعد الناس من ان يوجه اليهم نقد او تقريع — لذلك نراهم في كل العصور وفي كل الاديان يفعلون ما يفعلون وهم مستندون على اذرع الجماهير التي تأخذ لهم قوة واقتداراً من كل معتقداتهم في نظرهم

لذلك كان لزاماً على كل من يقف نفسه على دراسة ناحية ما من نواحي الحياة الاجتماعية ان ينزع عن عنقه هذا القيد الثقيل ، باحثاً ومنقباً في ضوء علمي بحثاً بعيداً عن عبث الاهواء والنزعات التقليدية

ولعل القارئ يتفق معي على ان ابرز ظاهرة لهذه التقاليد هي تلك التي تتصل بحياتنا الجنسية ، حتى لقد ثبت في الاذهان ان « علم الجنسيات » والتربية الجنسية سر من الاسرار التي لا يرى ان تباح او تبتذل . حتى في الدوائر العلمية [2] لقد صار ما ندعوه Tahoo اي « التحريم » على التعاليم الجنسية يشملنا منذ نشأة الطفل الى حياة الرجولة او الامومة

* * *

ينشأ الطفل ويعتقد منذ ايامه الاولى اعتقاداً ثابتاً ان ثمة جانباً من حياته يجب الا يعرف منه الأبوان فاذا ما سأل عن بعض هذا انتهره ابواه وزجراه بعنف وغلظة — لن ينسى اثرها

(١) Captain Parkers 'Case

(٢) فمن ذلك ان كثيراً من الكتب الطبية الموضوعة في هذه الفروع لا يسمح بيعها في المكاتب الانجليزية الشهيرة الا لرجال الطب او غيرهم من الاخصائيين

صورة اسرة من سكان جزيرة بورنيو الاصليين

امام صفحة ٨٩

مقتطف يناير ١٩٣٣

التعمق في نفسه فيما بعد — حتى يؤمن بان كل ما يختص بجنس عبء ان يستره ولا يبوح به. ولست هنا في مقام تبيان اضرار ذلك بل يكفي ان اذكر ان الشذوذ الجنسي عند كثير من الصبيان والفتيات قد يرجع الى هذه الاسباب

ولا ينتهي الامر كذلك ، بل ترقى هذه النزعة الى دور الرجولة او الامومة حتى في بعض الحالات الخاصة التي يكون فيها السكوت والاضمار منتجاً لاوخم العواقب

***

في الزواج تتحكم فينا التقاليد بل انها قد تكون العامل الاساسي لهدم الزواج او لنشله، فالفتاة قبل الزواج او بعده قد تكتم ما يدور في خاطرها حتى عن اقرب الناس اليها ، لكي لا تعتبر في نظرهم وقحة جريئة، بينما الرجل يمثل الدور نفسه حذراً من ان يدوس على هذه التقاليد او ان يخترق سياجها

وليس ادل على اصطناع هذه التقاليد اصطناعاً محلياً من تعارضها وتنافرها عند الشعوب المختلفة او عند الشعب الواحد من درجات الحضارة المختلفة . فارتداء ملابس الرأس داخل الدار مثلاً دليل في الشرق على احترام الجماعة التي تكون بينها ، بينما هو في الغرب دليل على سقم الذوق واعتداء على العرف، وهكذا اذا قابلنا بين لباس المرأة منذ عشرين سنة وبينه الآن

﴿ الزواج ﴾ ولتناوله من الناحية الاجتماعية متعرضين للنواحي النفسية والاقتصادية والقانونية له اذا دعت المناسبة

الزواج علاقة جنسية منظمة . ومعنى الكلمة الاخيرة ان هنالك قوانين عرفية او موضوعة وتقاليد وواجبات وحقوق ضرورية لاتمام الزواج . وهي تجري على الزوج والزوجة بل والعائلة التي يتصلان بها او ينتميان اليها والجماعة التي يعيشان في جوارها

ولابد للمجتمع من ان يعترف بهذا التعاقد والا كان ضائع الاثر او لاغياً ، ولذلك كان لابد ان تجري مراسيم الزواج علانية ، ومن اقامة الزينات والحفلات والولائم واطلاق النيران ودق الطبول والزغاريد الى رامية الى هذه الغاية . بل قد لا يكفي ذلك اذ ان هذا التعاقد يجب ان تقيده جماعة خاصة يعينها المجتمع لهذا الغرض كرجال الدين او مكاتب التسجيل او رئيس القبيلة

كما ان الاعتراف لن يتم الا اذا تبع قوانين خاصة وشروطاً معينة يحددها العرف او رجال القانون . ومثال ذلك وجوب ان يكون هذا التعاقد بين افراد معينين كافراد العائلة الاقربين او البعيدين كما سأبينه في المقالات التالية

ثم هنالك حقوق وواجبات يقوم بها الزوج وترعاها الزوجة ، كتعهد الاول بحماية الثاني

وأعالته وعند بعض الشعوب الفطرية تقام شبه اختبارات الغرض منها ان يتأكد اهل الفتاة او شيخ القبيلة من ان الرجل قادر على اعالة زوجته وحمايتها

ففي السودان تقام حفلات خاصة لهذا الغرض وفيها يتبارى الزوج المقبل ويتلقى على وجهه ويقاومه بعض فتيان القبيلة الاقوياء بالضرب بالسوط . او يطعنون على جسمه مسامير محماة فاذا اظهر تململاً أو جزعاً عُدَّ غير اهل للزواج وهذه العادة منتشرة بين شعوب مختلفة . ففي شرق افريقيا يغلب من الزوج أن يقتل تمساحاً ويطعم خطيبته منهُ ، او ان يوضع في حجرة مملوءة ببعض الحشرات السامة كالنمل في أمريكا الوسطى ، أو ان يطلب منهُ أن يقتلع جانباً من نباتات الغابة . وفي بعض نواحي آسيا (الجزيرة الشرقية) لا يتمُّ التعاقد إلا بعد أن يثبت الرجل انتصاره على آخر بتقديم رأس غريمه رمزاً لشجاعته [1]

وكما ان هنالك شروط على الزوج ، فلهُ حقوق كطاعة زوجهِ ورعيها لحرمته . وإن كان بعض هذه الحقوق ضائعاً عند بعض الشعوب ، فالطفل يدعى لأمهِ لا لأبيهِ ، وخال الطفل حقوق عليهِ أكثر من حقوق والده . كما إن الوالد في بعض الاحيان ليس لهُ الحق في أخذ زوجته إلى منزلهِ الخاص بل هو عليهِ أن يذهب الى دار أبيها ، يزورها هنالك الفينة بعد الفينة ، كما هي الحال في أسام

وليست هذه غريبة علينا في مصر ، ففي بعض بلاد الوجه القبلي (كأسنا) يجرون على مثل هذه التقاليد ، فليس للزوج أن يزور عائلته إلا في دار أبيها ليلاً فقط حتى إذا وضح النهار عليهِ أن يهرب قبل أن يراه احد

***

﴿ هل الزواج فطرة ﴾ وهنا يجدر بنا أن نسأل هل الزواج وهو كما رأينا علاقة جنسية منظمة طبيعة او فطرة ؟ أو دعنا نضع السؤال في قالب آخر وهو : هل الزواج [2] ضروري لأنهُ عمل فطري تدفعنا اليهِ الطبيعة ؟ انني قد أجيب عن هذا السؤال بالنفي والايجاب في وقت واحد. وإذا أردنا ان نستقصي الامر بدقة وجب علينا درس هذه الظاهرة الاجتماعية كما تبدو بين الشعوب المنحطة التي لم تنل قسطاً وفيراً من الحضارة ، وقد يكون درسنا أعمق لو تناولنا اولاً الزواج بين الحيوانات

هل هنالك زواج بالمعنى الذي نفهمهُ بين الحيوانات ؟ لا ولكن هذا لا يمنع أن تكون

---

(١) Westermark, History of Human Marriage.

(٢) لا العلاقة الجنسية المطلقة

الطبيعة الجنسية منظمة ليس إلا . عند بعض الحيوانات الراقية ، مدفوعة أو ملك بعوامل بيولوجية كطول مدة الحمل عند الأنثى وتعرضها أثناءه للخطر عن القيام بالعمل العادي ، وكذلك طول مدة الطفولة وعدم قدرة الطفل على الاعتماد على النفس فيها ، فكل هذا يستلزم تعاون الأنثى والذكر من الحيوان تعاوناً مستمراً يحدو بهما إلى تكوين رابطة أشبه بالأسرة عند الانسان

فالقردة الراقية كالغورلا والشمبانزي تكون عائلات من الأب وانثى واحدة أو أكثر وطائفة من الصغار يعيشون في ناحية مستقلة بهم في الغابة لا تتعدى حدودها الأسر الأخرى ، فكأن هنالك حقوق عائلية عرفية تعترف بها القردة . والقرد الذكر هو العائل لهذه الجماعة والحامي لها عند الاغارات يساعده فتيانه الصغار

ولا تنفرد القردة في ذلك بل كثير من الحيوانات لاسيما الطيور تجاريها فيه . فالطيور في نظر أحد علماء طبائع الحيوان ، المثل الأعلى للعلاقة السامية التي يحكمها الزواج بين فردين ، ولا شك أننا نتفق معه في ذلك من مشاهداتنا ، وليس أدل عليه من الحمام الذي يعيش ذكره وأنثاه معاً ويتعاونان تعاوناً صادقاً في رعاية الأسرة ومساعدة الصغار . وقد يحدث إذا فقد الواحد رفيقه أن يطير منفرداً لا يقر له قرار ، كأنه بذلك مصر على الاضراب عن الزواج . هذا ما فطنت الطبيعة مع بعض أبنائها فاذا فعل الانسان بثقافته وحضارته ؟

***

والزواج كما رأينا ضروري لتكوين الأسرة لذلك لا عجب إذا رأينا آثاره وكثيراً من نظمه السائدة معروفة بين الشعوب الهمجية . فالفوضى الجنسية كما يقرر دارون غير موجودة عند الانسان الهمجي ، لان الغيرة الجنسية نزعة فطرية في الانسان

ووجود الاطفال له شأن خاص في ثبات أساس الزواج وحمايته من التهدم على مر الزمن بين أبويه فالطفل يجمع بينهما جمعاً غير مباشر ، حتى ان الزواج لا ينظر اليه نظرة جدية عند بعض الشعوب الا بعد ولادة الطفل ، أو التأكد من ولادته وحينئذ فقط تستكمل المراسيم التي لم تجر سابقاً في حين ان العقم عامل كبير في تقويض أساس الاسرة ، وعلى عدم الاكتراث للعلاقات الزوجية بين الرجل والمرأة . ومما يساعد على تكوين الاسرة قلة نسبة التناسل عند الانسان والحيوانات الراقية ، فيتاح للأبوين تركيز العناية بصغارهما في دائرة ضيقة

احمد عطية الله

مدرس التربية بمعلمات حلوان